النهضة الأدبية العربية

الثقافة المغربية

لسنا نعتبر الأدب الحر في مظاهره المختلفة، وألوانه العديدة، إلا صورة عن الحياة في حدودها الواسعة، فلا يغرب عن بالنا أن نزيف كل أدب فنه زخرفة مصطنعة، أو جمل متراصة، لا أثر للجدية والعاطفة فيه، فحسبنا أن يكون أدبنا معبرا عن إحساساتنا، ومكيفا بما يتجه بنا من ميول ومثل عليا تقودنا في صراع هذه الدنيا. والعاطفة البشرية لا تتغير تغيرا تاما، بل تتلون بمؤثرات البيئة، واتجاهات الجماعات، وصدمات المحيط؛ فقد ندرك بمقارنة بسيطة ما يمتاز به أدب كل أمة عن أدب الأخرى، خصوصا بعد دراستنا لما أحيط بإنتاجها الأدبي من عوامل لا تتصل مباشرة بالأدب، وإنما تحول اتجاهه دون أن يشعر الأدباء أنفسهم، وهكذا نستطيع أن نتصور وجود أدب عالمي إذا ما نظرنا إلى العاطفة وهى رائدة الأدب الحر، حيث أنها لا تختلف لدى سائر الشعوب إلا في مظاهرها، لا جوهرها، تلك المظاهر التي تكون الأدب القومي أو الإقليمي الضيق النطاق وتصبغه بطابع قد يكون محببا لدى كل الشعوب الأخرى.

وكلما تقاربت الميول في أمتين وتوحدت اتجاهاتهما، زالت تلك الهاوية الإقليمية بينهما، وهكذا كلما تسامت نفسية الأديب، فكر بصورة تشمل الحياة الفسيحة لا المقيدة بحدود جغرافية، فيخرج من حدود الأدب القومي إلى حدود الأدب العالمي الخالد الذي لا يفنى بزوال ما أحيط به من مؤثرات وقتية.

هذا هو أساس خلود الأدب ونضوجه في الأمة.

نكتب هذا التمهيد بمناسبة ما يروج منذ أيام في أوساط مصر الأدبية حيث اختلفت الآراء

في الأدب العربي هناك، فطائفة لا ترضى بديلا عن « تمصير الأدب » وطائفة لا تقر بهذا الرأي، بل تخالفه في شدة وتنكر أن يكون هناك أدب مصري بحت ، بل إن ما أنتجته مصر في ماضيها وحاضرها ليس إلا جزءا متمما للأدب الإسلامي التي تشترك فيه سائر الشعوب الإسلامية التي اتخذت العربية لغة لها.

ولكل فريق من هاتين الطائفتين آراء تستند على الماضي السحيق تارة وعلى ماضي مصر الإسلامي طورا. فتعتبر الطائفة الأولى أن هناك مميزات تخص تراث مصر الفكري، وبدراسة هذا الأثر نستطيع أن نستخرج هذه المميزات في وضوح وجلاء، على أن هذه الطائفة لم تقدم لنا بعد هذه المميزات لفحصها وتطبيقها على أدب الأمم الأخرى وإنما هى تعتكف على دراسة الأدب المصري الحديث والاعتناء به، وهذه غاية محمودة تستحق منا الالتفات نحن أبناء الأمم العربية الأخرى.

أما الطائفة الثانية وهى التي لا تتصور وجود هذه المميزات تخشى كثيرا من « فرعونية » مصر في الأدب العربي بطريق الإعجاب غير المناسب؛ وجل أفراد هذه الطائفة هم من أبناء مصر المشتغلين بدراسة الأدب العربي القديم ، فهى لا ترى في تلك المميزات - إذا وجدت - إلا أنها نتيجة ظروف وعوامل خصت مصر كما أن هناك ظروفا وعوامل أخرى اختصت بغيرها من الأمم العربية فكان لها مميزات أيضا.

والمرء لكى يفصل بين آراء الطائفتين ينبغي أن يفكر طويلا، فنحن أمام مسألة خطيرة تتوقف عليها نهضتنا الأدبية وتطورها. فمصر حازت زعامة العالم العربي في الأدب واعترف لها أدباء الأمم الأخرى بذلك. فهل من صالح الأدب العربي أن تدوم هذه الزعامة لمصر وتقود هى الأمم الأخرى أم ينبغي أن نحاسبها على هذه الزعامة ونتنافس في مضمارها؟ وبعبارة أصح ،كيف تكون نهضتنا الأدبية، هل ينبغي أن تتنافس الأمم العربية أم تتضامن في إيجاد أدب خالد؟ هذا هو السؤال الذي نطرحه على أدباء العربية اليوم.

وكأني بالطائفة المصرية التي تود أن تعطى لأدب مصر تلك المميزات دون الأدب العربي

الآخر لا تحاول هذه المحاولة الجريئة إلا لغاية أن ببعث روح التنافس بين الأمم العربية الأخرى بعد أن ساعد تفوق مصر الأدبي على ركود تلك الأمم فأصبحت تعترف بقصورها بعد أن كان من واجبها مسابقتها والسير معها في الميدان جنبا لجنب.

فمصر زعيمة العالم العربي لكن لا ينبغي أن نتصور أن الزعامة تبقى لها مدى الدهر بل ستحاول كل أمة عربية أن تكتسب تلك الزعامة لنفسها بمجدها وتفوقها.

أما أن يبقى هذا التضامن في المنتوج الأدبي أو يبقى كل شعب عربي يعتمد على غيره دون أن يتنافس معه فذلك ما يؤدي بنا إلى نتيجة غريبة هى تأخر نضوج نهضتنا.

فالحياة البشرية لا تسير بباعث التضامن بل بباعث التنافس، حيث يتاح للمرء أن يظهر مواهبه، وهو معتمد على نفسه لا متضامن مع غيره، وتاريخنا الأدبي أقوى دليل على أن التنافس كان أكبر عامل لنهضة الأدب في المغرب، تلك البلاد التي لم يكن أهلها يعرفون العربية، ولو كان هناك تضامن لاكتفى المغرب بتراث المشرق.

ثم إن اعترافنا بزعامة مصر يبعث في نفوسنا نوعا من التقدير لها في غير محله في حين ينبغي أن يسود الاحترام الذي يصوره التنافس النزيه والعبارات التي من شأنها أن تعترف بتفوق الغير وتسعى في منازلته في آن واحد.

وهذه الأمم المشتركة في نزعاتها الروحية ولغتها السامية والتي لها وحدة في المقاصد وتاريخ مشترك قد تستطيع بباعث التنافس أن تكون دعائم أدبها، وتتسامى في أفقه، فتصل إلى حدوده العالمية بعد أن تغادر تلك الإقليمية الضيقة فيكتب الخلود لأدبها حيث يسابق أرقى أدب الأمم الأخرى في المحيط البشري، لأن منشأه الأول لا يعبر عن جماعات في أمة واحدة بل يعبر عن أمم مختلفة.

وهكذا يكون من رأينا أن تتنافس الأمم العربية وليكن تضامنها مظهرا لتساميها لا وسيلة لاعتماد بعضها على بعض.

فمن الغريب أن تكون سورية وهى لا تقل عن مصر تعليما وتهذيبا وأبناؤها من أذكى

الشعوب لا تنتج في المضمار الأدبي سوى جزء طفيف مما تنتجه مصر، وإذا تحدث السوري عن النهضة العربية الحديثة افتخر لك بما لأبناء النيل في الميدان من أثر معتمدا على أن كل أثر عربي لا يسجل إلا في اسم مجموع الناطقين بالضاد، وما ذاك إلا من نتيجة خمود روح التنافس؛ التنافس في المستقبل حيث يتاح لنا البناء من الجديد، أما عن الماضي حيث يتاح لنا التنقيب على كنوز أدبنا فلنكن متضامنين إلى حد معين، ولنكن متنافسين في استكشاف تلك الآثار القيمة الغالية، ناسبين كل الفخر في ذلك السمو إلى المجموع الإسلامي، ذلك لأن اختلاط الشعوب التي دانت بالإسلام لم يكن اختلاطا وكفى، بل امتزاجا محيت فيه شخصية الفرد أمام تيار المجموع.

للكلام بقية لم نتمكن من العثور عليها فمعذرة.